حسام الخطيب:
الأستاذ الأمين على رسالة العلم

د.عبد النبي اصطيف

جامعة دمشق

«من لا يشكر الناس لا يشكر الله»، مبدأ أخذت نفسي به، منذ وعيت هذه الدنيا، بتوجيه من والديّ، رحمهما الله؛ ومما أخذته عهداً على هذه النفس أيضاً «أن من علمني حرفاً كنت له عبداً»، هكذا عشت، وهكذا سأبقى ما حييت: أن أكون عبداً شكوراً لله عزَّ وجلَّ، وللنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأنا -عبد النبي- مجرد خادم له، ولكل من أخذ بيدي في مراقي العلم والمعرفة.

ولذلك فإن مما يسرّني حقاً أن أُذَكِّر نفسي، ومحبي أساتذتي بفضلهم عليّ، وأبو الأمين -الأستاذ الدكتور حسام الدين الخطيب، حفظه الله ومن يحب- له من الأيادي البيضاء عليّ وعلى غيري ما يعجز اللسان عن شكره.

وقد تعرّفت أبا الأمين بداية من خلال مقالاته في مجلة المعرفة المرموقة، التي كان النشر فيها، طموح أي كاتب في سورية والوطن العربي، نظراً للمستوى الرفيع لما تنشره من مواد كانت مصدر تثقيف وتوعية للشباب العربي السوري، وعندما دخلت قسم اللغة العربية وآدابها في جامعة دمشق، فوجئت به يتتبع تقدُّمي في الدراسة، ويستدعيني ليخبرني بدرجات نجاحي في المواد، بعد أن لفت نظرَه تفوّقي

واهتمامي بمختلف المواد الدراسية؛ والحقيقة أن هذا مما يُذكَر للرجل الذي يعنيه شباب الأمة، ولم يكن ينتظر مناسبة ما حتى يتعرّفونه، لأنه كان يبادر إلى تعرّفهم وتشجيعهم وتوجيههم ومساعدتهم على تبيُّن مواقع خطوهم، والتخطيط لمستقبلهم.

وعندما تخرجت، وتقدمت للدراسة في دبلوم الدراسات الأدبية، كنت وغيري نلتقيه أسبوعياً أكثر من مرة، ففضلاً عن تدريسه لنا مقرر دراسات نقدية باللغة الإنكليزية (وكان قد اعتمد فيه كتابي: **نظرية الأدب** لرينيه ويليك وأوستن وارين، **والنقد الأدبي** لموسى الخوري) كنا نلتقيه بصحبة الأساتذة الزائرين الذي كان يحرص على استقدامهم للتدريس في القسم بصفة أستاذ زائر من أمثال ريزيتانو الإيطالي، وباخمان الألماني، وأندريه ميكيل الفرنسي، ونانديا أنجيليسكو الرومانية، وعبد الرحمن الحاج صالح الجزائري، وحسين نصار وعبد الصبور شاهين المصريين، فضلاً عن عميد الأدب العربي الثاني الدكتور إحسان عباس الذي كان يأتينا كل أسبوع من بيروت ليدرِّسنا الشعر العربي الحديث والمعاصر، والذي كانت تمتد ساعتاه المقررتان علينا إلى جلسات طويلة لم يبخل علينا فيها بعلمه وفضله، وكان قدومه الأسبوعي إلى دمشق بفضل الدكتور حسام الذي تتلمذ عليه من قبل وعرف ما لديه من علم ومعرفة فآثر أن يدعوه ليسهم في بناء الجيل الجديد من طلبة الدراسات العليا في جامعة دمشق.

وعندما تمَّ اختياري معيداً في قسم اللغة العربية وآدابها، وكان أبو الأمين آنذاك معاوناً لوزير التعليم العالي ورئيساً للقسم، أكرمني باختياري مساعداً له في إدارة القسم، أجلس في مكتبه، وأجيب عما يأتيه من هواتف، وأتابع تنفيذ توجيهاته الهاتفية والشخصية. وقد تعلّمت في تلك السنة الكثير الكثير عن أنظمة جامعة

دمشق، مما ساعدني لاحقاً في عملي وكيلاً لكلية الآداب والعلوم للشؤون العلمية، ورئيساً للقسم في مرحلة لاحقة.

وكنت في تلك السنة مستنفَراً أربعاً وعشرين ساعة، فقد كنت أحضر مع أبي الأمين محاضراته لطلاب السنة الرابعة في القسم: في الأدب الأوروبي، والأدب المقارن، والنقد العربي الحديث، ودراسات عربية باللغة الإنكليزية، فضلاً عن محاضراته في الدراسات العليا؛ وكنت كذلك أدرِّس حلقات البحث في مقررات الأدب الأوروبي والأدب المقارن والنقد العربي الحديث، إلى جانب تدريس طلاب السنة الأولى المعاجم العربية بإشراف الأستاذ أحمد راتب النفاخ رحمه الله. وكان أجمل ما في تلك الأيام مناقشاتي مع أبي الأمين التي كانت تتلو محاضراته، وجلساتي مع الأستاذ النفاخ الذي بذل من علمه وفضله وكتبه ما يسّر علي تدريس المعاجم العربية القديمة والحديثة، والتي تعلمت من تدريسها الكثير. وقد كانت هذه المناقشات والجلسات خير حافز لي على التوسع في قراءاتي المتنوعة.

والمهم أنه بعد أن تقرر إيفادي إلى بريطانيا لأُعِدَّ رسالة دكتوراه في إحدى جامعاتها المرموقة في موضوع «النقد الأدبي العربي الحديث والمؤثرات الأجنبية فيه»، قام أبو الأمين بالاتصال بالملحق الثقافي البريطاني وطلب منه ترشيح عدد من الجامعات المعنية بالموضوع لمراسلتها، وبالفعل أرسل السيد بَني –فيما أذكر– قائمة بهذه الجامعات، مشفوعة بأسماء الأساتذة المهتمين بالدراسة المقارنة للنقد العربي الحديث، إلى أبي الأمين الذي ساعدني في إعداد خطابات خاصة بكل منها، وبعد وصول طلبات الانتساب كان لا بد من ملء كل منها بعناية ودقة، وشفعِه بثلاثة خطابات توصية من جانب أساتذة القسم. ولم يكتف أبو الأمين بمساعدتي في إعداد الطلبات ولا في كتابة خطابات التوصية العديدة بل كان يوصي بي الأساتذة

الآخرين ويدعوهم إلى مساعدتي، وهكذا كتب الدكتور عدنان حسين، رحمه الله، والذي عاد آنذاك من جامعة مانشستر، أكثر من كتاب توصية، وكذلك فعل الدكتور كمال أبو ديب، الذي جاء إلى دمشق في ذلك العام راغباً في العمل في جامعتها، والذي أصرَّ على قراءة نماذج من عملي البحثي قبل أن يوصي بقبولي في جامعة أكسفورد، وهو من أبرز خريجيها العرب، وقد كان له ما أراد حيث قدّمتُ له بحثي حول «نظرية النظم عند الجرجاني» الذي أعددته في سنة الدبلوم بإشراف الدكتور مازن مبارك. والمهم أن مجموعة توصيات من أبي الأمين –الذي كان دائماً يوصي بي باسم أساتذة القسم كلِّهم– وعدنان حسين، وكمال أبو ديب، والدكتور شكري فيصل الذي كان أمين مجمع اللغة العربية بدمشق آنذاك، والذي كان على صلة وثيقة بالدكتور محمد مصطفى بدوي، أستاذ الدراسات النقدية الحديثة في جامعة أكسفورد، كانت وراء قبولي طالباً في كلية سانت أنتوني، جامعة أكسفورد.

ولكن قبول الجامعة كان مشروطاً بتحقيق مستوى أدنى من معرفة الإنكليزية، وكانت نتيجة اختبار الإنكليزية، الذي أجراه لي الملحق الثقافي البريطاني، أنني بحاجة إلى دورة مكثفة باللغة الإنكليزية لمدة شهرين قبل الشروع بالدراسة. ولم يكتف أبو الأمين باستصدار القرارات اللازمة من أجل إيفادي ودراستي للغة، بل قام بالاتصال بالدكتور كامبل أستاذ القبولTutor of Admission في كلية سانت أنتوني، وطلب منه تسجيلي في أي معهد يرتئيه توفيراً للوقت، وهكذا كان، إذ سُجِّلت في الدورة الصيفية التي كان ينظمها مركز جامعة ريدنغ للسانيات التطبيقية Reading University's Centre for Applied Linguistics. وكان علي أن أستعد للسفر بعد صدور قرار إيفادي، ولم يكن لدي جواز سفر، وثانية تدخل أبو الأمين

لأحصل على جواز سفر طالب موفد خلال يومين وهو رقم قياسي لما كان سائداً آنذاك.

والمهم أني وصلت متأخراً أسبوعين عن بدء الدورة، ولكن عوّضت ما فاتني بالدراسة المكثفة ليل نهار اجتزت بعدها امتحان القبول، وسجلت في جامعة أكسفورد في خريف عام ١٩٧٦م، مُوطِّناً نفسي على العناية بلغتي حتى أستطيع أن أنافس مَن حولي من طلبة متفوقين درس جُلُّهم في جامعات أجنبية ومدارس أجنبية خاصة، وكان التحدي كبيراً، ولكن أبا الأمين لم يتخلّ عني وواصل تشجيعه لي بكل ما يملك من وسائل، كالرسائل الشخصية، والزيارات، وتسهيل الأمور الإدارية، مما افتقدته لاحقاً عندما ترك أبو الأمين رئاسة القسم إلى غيره من الأساتذة، الذين لم يكونوا في اهتمامهم بمعيدي القسم وبنجاحهم في دراساتهم على درجة اهتمام أبي الأمين، ربما بسبب عامل اللغة، والله أعلم.

والحقيقة أنني مدين لأبي الأمين بالكثير مما حققته في تلك الفترة الغنية من حياتي. أنا مدين له بما نشرته من رسائل ثقافية، ومقالات، وترجمات، في مجلات **مجمع اللغة العربية** بدمشق، **والمعرفة**، **والموقف الأدبي**، **والآداب الأجنبية** والمستقبل العربي وغيرها؛ وأنا مدين له بما سعيت إلى دراسته وتتبعه من مقررات خاصة بالآداب الغربية المختلفة، والتي تيسرت له دراسة خطوطها العامة على يد كبار المختصين بدءاً من الآداب الكلاسيكية إلى الآداب الحديثة، مروراً بآداب العصور الوسطى وعصر النهضة وعصر التنوير، وقد كان لكتابه **محاضرات في تطور الأدب الأوروبي ونشأة مذاهبه واتجاهاته النقدية** (١٩٧٥م) الدور الأكبر في هدايتي في هذه الرحلة الشائكة الشائقة التي فتحت أمامي الباب واسعاً للدخول في الدراسات المقارنة بثقة أكبر، وأنا مدين له بما نشرته كذلك من دراسات بالإنكليزية في عدد من

المجلات الثقافية والمحكَّمة من مثل مجلة الأدب العربي، والمجلة البريطانية لعلم الجمال، ونشرة الرابطة البريطانية لدراسات الشرق الأوسط وغيرها، خاصة وأنه كان يرسل لي ما ينشره من دراسات بالإنكليزية كلما ظهرت واحدة منها، ويحفزني على الكتابة والنشر بها، ومن شابه أستاذه ما ظلم.

وإن نسيت الكثير من أيادي أبي الأمين البيضاء عليّ فلن أنسى كيف «سلّمني» مقرر النقد العربي الحديث الذي كان يدرسه لطلاب السنة الرابعة في القسم قبل عودتي من الإيفاد. ذلك أنني رجوته أن يسمح لي بحضور محاضراته -كما كان شأني سابقاً- والجلوس بين الطلبة دون علم منهم، وذلك بغرض التعرّف على جو الطلاب بعد غياب سبع سنوات ونصف. وبعد حضوري لمدة أسبوع بينهم، خاطب أبو الأمين الطلبة قبل استراحة منتصف المحاضرة بالود والاحترام اللذين عهدناهما فيه، وقال لدي خبران سيِّئ وحسن، فأما أولهما فهو أن هذه آخر محاضرة ألقيها عليكم في مقرر النقد العربي الحديث، وأما ثانيها فإني أعهد بهذه المهمة إلى تلميذي عبد النبي اصطيف الذي عاد لتوه من أكسفورد ليكمل مفردات المقرر معكم حتى نهاية العام، ودعاني بعدها إلى منصة القاعة السادسة ليقدمني إلى الطلبة، وقفت إلى جانبه، وأنا أشعر بالفخر بمجاورته، وبالامتنان لما غمرني به من حب وتكريم، بينما انطلق يتحدث بفضله ونبله عني بما طمأن الطلبة على حسن سير المقرر.

أما صاحب هذه السطور فقد حبس في مقلتيه دموعاً كادت تفيض، وحار كيف يشكر شيخه، الذي بدا سعيداً بإيصال تلميذه إلى برِّ الأمان، وللقارئ أن يتصور كيف اجتمع على المنصة خريجان أحدهما من جامعة كامبريدج، والآخر من جامعة أكسفورد، اجتمعا لا ليتنافسا، كما هو شأن خريجي الجامعتين في مختلف مجالات

العلم والمعرفة والرياضة، بل ليتكاملا، يأخذ الكبير منهما بيد الصغير ليحمل بعده الراية، والتي سيسلِّمها هذا الأخير بدوره إلى من يحملها بعده. هذه سنّة الحياة، نُسدِّد ديْنَنا لآبائنا بالعناية بأولادنا، ونُسدِّد ديوننا لأساتذتنا (والأستاذ صنو الأب تماماً) بالعناية بتلاميذنا، وحسبنا أن نؤدي الأمانة، أمانة نشر العلم الشريف، أوليس هذا ما سماه أجدادنا؟

* * *